اغاثة الملهوف

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت

ان إغاثة الملهوف ليست حديثا يسمع ولا خطبة تذاع وإنما هو خلق فاضل كريم ، تتحلى به النفوس الطيبة الطاهرة ، هو خلق يغرسه فى الانسان مجموعة من الخلال الفاضلة الكريمة ، تغرسه الرحمة والمروءة والشهامة .

فالرحمة تحمل صاحبها على أن يتألم لآلام الناس ، ويبكى لبكائهم ، ويشعر بنكبتهم وأثقال بؤسهم والمروءة تحمل صاحبها على أن يخفف الويلات ، ويمسح العبرات ، ويكافح الآلام ، ويدفع الأحزان ، ويحنو على الضعفاء والمنكوبين كما تحنو الأم الرءوم على أبنائها المستضعفين والشهامة تأبى على صاحبها أن يعكف وحده على لذاته ومسراته ، وأن يتمتع بثروته وهناءته ، وهو يعلم أن بجانبه منكوبا أصابته الأيام ، أو جائعا حرمه الجوع لذيذ المنام أو مريضا يتقلب على فراش الآلام ، أو يتيما يبكى أباه ، أو ثكلى فرق بينها وبين وحيدها الزمان .

بهذه الصفات الثلاث ينبغى أن يكون الفرق بين الانسان وغير الانسان ، فإذا كان المرء رحيم القلب ، شهم الفؤاد ، ذا مروءة ونجدة ينبعث إلى إغاثة الملهوف ، وتفريج كربة المكروب ، وقضاء حاجة المحتاج ، فذلك هو الإنسان حقا .

أما إذا قسا قلبه ، وخلت من المروءة والشهامة نفسه ، وعاش لنفسه فقط ، لا يصبأ بآلام الناس ، ولا يكترث لمصائب الناس ، ولا يساهم فى تخفيف الويلات ، فذلك عند الله وعند الناس وحش ضار فى صورة انسان .

إن الرجل الذى لا تؤثر فى نفسه مناظر البؤس ، ولا ضحايا الفقر لهو رجل فظ غليظ قد من الحجر الصلد ، وصيغت من الصلب الجامد أعصابه .

إن الرجل الذى لا يكون همه فى ليله ونهاره إلا أن يحسب حساب دخله وخرجه ، ولا تحدثه نفسه فى ساعة من ساعاته عما ينبغى أن يحسن به أو يتصدق ، لهو رجل غير جدير بإنسانيته ، غير جدير بأن يعيش بين الناس كأنه واحد منهم ، وإنما مكانه الذى يجدر به ، أن يكون بين الوحوش الضاريات فى جبل أو فلاة .

إن الانسان هو الذى يرحم ، هو الذى يحس ويتألم ، هو الذى يغيث الملهوف ، هو الذى يهدى الحيران ، هو الذى ينقذ الموروط ، هو الذى ينهض العاثر ، هو الذى يحمل الكل ويحنو على الضعيف .

قد أيد الله فى كتابه الكريم هذا المعنى الشريف وحض على إغاثة الملهوف وسد حاجة المسكين ، وتفريج كربة المكروب ، وجعل ذلك فى كثير من الآيات قرين الإيمان ونظير الصلاة ، وسبب الغنى واليسار ، وطريق النجاح والفلاح .

اسمعوا قول الله فيمن لايحض على طعام المسكين ، ولا يسد حاجة المحتاجين ، وكيف اعتبرهم من المكذبين بالدين الذين لاتنفعهم صلاة ولا خشوع :

"أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ" .

اسمعوا قول الله ، وهو يعتبر أن سد حاجة الفقير ، واغاثة الملهوف ، فى يوم المجاعة هو العقبة الوحيدة التى اذا اقتحمها الانسان ، وصل الى سعادة لا يشوبها تنغيص ولا ألم :

"فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ" .

واسمعوا قول الله فى أرباب الأموال الذين يحبون المال حبا جما ، ثم لاتهزهم نحو الفقير عاطفة :

"كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ" .

ثم تعالوا واسمعوا تنويه القرآن الكريم بشأن أرباب المواساة ، والإيثار :

" وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس رءوفا رحيما ، يصل الرحم ، ويحمل الكل ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، ولم تكن رحمته صلى الله عليه وسلم خاصة ببنى الانسان وإنما كان يرحم الحيوان الأعجم ، ويوصى أصحابه برحمته ، وبلغ من أمره فى ذلك أنه كان يميل الإناء للهرة بيده الشريفة حتى تروى ثم يرفعه ، وروى عنه أنه قال مامعناه "أن مرأة دخلت النار بسبب هرة حبستها حتى ماتت فلا هى أطعمتها ، ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض"

وحدث أصحابه يوما فقال " بينا رجل يمشى بطريق اشتد عليه الحر ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فاذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل ، لقد بلغ هذا الكلب من العطش ، مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل الرجل البئر فملأ خفه وأمسكه بفيه حتى خرج من البئر فسقى به الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له ، فقالوا يارسول الله ، وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟ فقال فى كل كبد رطبة أجر"

وقد صور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف الذين يمنعون المعاون ويقطعون عن مواساة الناس حين يعرضون على الله رب العالمين بصورة رهيبة ، تفرغ منها النفوس المؤمنة ، اسمعوا الرسول وهو يقول فى ذلك " ان الله عز وجل يقول يوم القيامة يابن آدم مرضت فلم تعدنى ، فيقول ابن آدم يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ، فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما أنك لو عدته لوجدتنى عنده ، يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، فيقول يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ، فيقول الله : أما علمت ، أن عبدى فلانا استطعمك فلم تطعمه ، أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، فيقول ، يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ، قال ، استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى "

بمثل هذا كان صلى الله عليه وسلم يغرس فى نفوس أصحابه الشفقة والرحمة والتعاون ، والإيثار وإغاثة الملهوف ، وتفريج كربة المكروب ، ولذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم مثلا عليا فى البر والرحمة والايثار ، ومما يروى فى ذلك أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه

وسلم ، فقال يارسول الله إنى مجهود ، فأرسل النبى الى بعض نسائه ، يسألها هل عندها طعام ، فقالت لا ، والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء ، ثم أرسل الى أخرى من زوجاته فقالت مثل ذلك ، حتى قلن كلهن مثل ذلك ، لا والذى بعثك بالحق ماعندى إلا ماء ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم من يضيف هذا الليلة؟ فقال رجل من الأنصار أنا يارسول الله فانطلق به الى رحله ، فقال لامرأته أكرمى ضيف رسول الله ، ثم سألها هل عندك شىء فقالت لا ، إلا قوت صبيانى ، قال فعلليهم بشىء ، واذا أرادوا العشاء فنوميهم ، واذا دخل ضيفنا فاطفئى السراج ، وأريه أنا نأكل معه ، ثم قعدوا ، فأكل الضيف ، وباتا طاويين

وبعد ، فكم هم الذين يتخلقون بأخلاق الإنسانية الفاضلة ، وأخلاق الرسول الكريم ، وأخلاق صحبه الأماجد

إنى لأتخيل القراء الآن ، واستعرض صورهم ، وأحوالهم ، فأجد لهم أحوالا مختلفة ، وصورا متباينة :

هذا قارئ قدجلس على فراشه الوثير هادئ النفس مطمئن القلب ، يحيط به من نعمة الله ، ألوان وألوان ، ومن حوله أبناؤه ، وبناته ، وشريكته فى حياته ، ترفرف عليهم أعلام النعيم ويسرى فى جوهم نسيم الصفاء ، فاذا كنت أيها القارئ هكذا ، فإنى أبعث بتهنئتى اليك وأرجو من الله أن يزيدك متاعا ونعيما ، ولكنى أرجو منك أيضا أن تذكر وأنت فى نعيمك السابغ أن قوما من بنى وطنك يعيشون فى ظلال الفاقة ، وتحت جناح الذل ، يفترش أحدهم الأرض ، ويلتحف السماء ويتعرض للأجواء والأنواء ، والأعراض والأمراض ، أرجو منك أن تذكر حين ترى أبناءك من حولك ، بارك الله لك فيهم ، وجنبك وإياهم أحداث الزمان ، أن الليل ينطوى على آباء وأمهات قد أخذ الفقر بتلابيبهم وأمسك العدم بخناقهم ، ومن حولهم أطفال كصغار القطا يتضورون جوعا ، ويتلوون ألما وقد تفشت فيهم الأسقام وتعرت منهم الأجسام ، وتحالفت عليهم الليالى والأيام ، اذكر وأنت تداعب ولدك ، أن أطفالا من بنى وطنك ، كانوا بالأمس بين أحضان آبائهم ناعمين ، وهم اليوم فى كنف الضياع ، يذوقون آلام اليتم والتشريد ولا يجدون من يطعمهم اذا جاعوا ولا من يكسوهم اذا تعروا ، ولا من يمسح دموعهم اذا بكوا متوجعين :

وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ".

اذكرى أيتها الزوجة السعيدة ومن حولك زوجك وأبناؤك أن أما هى أختك فى الدين والوطنية قد أفزعها الفزع ، فخرجت تهيم على وجهها ، وتتعثر فى حيرتها ، وقد ذهلت من هول ما أصابها حتى اذا استفاقت من هذا الفزع نظرت فاذا هى أرملة ، قد فقدت زوجها ، و إذا هى ثكلى قد حرمت وحيدها ، واذا هى مشردة قد تهدم بيتها ، واذا هى مضيعة قد سلبت مالها ومتاعها .

أذكروا ذلك أيها السعداء المترفون ، واشكروا الله على ما حباكم به من فضل ، وما أنعم عليكم به من إحسان " لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ " ، ولايكن شكركم كلمات تلوكها الألسنة ، وتمصمص بها الشفاه ، أو حسرات وزفرات ، وانا لله ولا حول ولا قوة الا بالله . . ! فهذه رحمة سلبية ، لاتفيد الفقراء ولاتنفع المنكوبين ، ولا تسد رمق الجائعين ، وانما تفيدهم الرحمة الايجابية والاغاثة العملية ، انما يفيدهم أن تسرى فى بيتكم روح المروءة والشهامة والنجدة والغوث ، فيتبرع الأب فى الحال بكذا وتتبرع الأم بكذا . ويتبرع الأبناء والبنات بكذا . هذه هى الرحمة التى تفيدهم فهل أنتم لها فاعلون ؟

هـذه إحدى صور القراء الى وأنا أناجى فى " اغاثة الملهوف " و إنى لأتخيل الصور الأخرى فماذا أرى ؟ !

أرى جماعة فى ناحية أخرى قد اجتمعت فى عناية واهتمام الى مائدة خضراء ماذا يصنعون ؟ يلعبون البوكر وينفقون فى سبيله الأموال الطائلة . وجماعة ثانية تلعب النرد وثالثة تلهو بسباق الخيل . ورابعة بألوان من اللهو والعربدة والفسوق . . وإليهم جميعا :

أيها السادرون فى غفلتهم ، الممعنون فى لهوهم ، المسرفون فى لذتهم ، على رسلكم قليلا فإن البلاد مهددة بالجوع والخوف ، والنقص فى الأموال ، والأنفس والثمرات . على رسلكم قليلا فإن البيوت العامرة تخرب ، و إن الأرواح الزاكية تزهق ، و إن الأسر المجتمعة تمزق ، و إن أفاريز الشوارع تعج فى هذا الليل المظلم باللاجئين الحائرين .

أنتم فى نواديكم لاهون . وفى شهواتكم وشرابكم ولذاتكم غارقون . وفى البلد أناس لا يسكنون دارا . ولا يعرفون لأبنائهم وأنفسهم قرارا . فهم فى يومهم حائرون . ومن غدهم قد أوصدت فى وجوههم أبواب الأمل . وأظلمت أمام أعينهم أيام الحياة .

اهجروا هذه النوادى ولو مؤقتا ، وجربوا الاحسان الى هؤلاء ، جربوا الرحمة و إغاثة الملهوف . جربوا لذة البر بالفقير . أدخلوا السرور على اليتيم . خففوا الويلات عن الحيارى فإنكم ان فعلتم ذلك تذوقتم اللذة الحقيقية ، وأرحتم ضمائركم ، وأرضيتم ربكم . وأنقذتم وطنكم وأديتم واجب انسانيتكم .

إن دعاء الملهوف الذى تغيثه يا صاحب المروءة ليصعد الى الله تكاد تبصره عيناك . وتلمسه يداك . إن كلمة الشكر يتقربها غير مسكين ، أو يتلعثم بها لسان مريض ، أو تحرك بها شفتا مجهود لأشهى وأعذب عند ذوى المروءة والانسانية من نغمات الغناء ورنات المزاهر والأعواد .

أيها السادة : لست أدعوكم الى الرحمة : وإغاثة الملهوف باسم الدين أو الانسانية فقط ولكنى أدعوكم أيضا إليها باسم المصلحة العامة للوطن . وباسم مصلحتكم الخاصة . انكم بالاحسان الى الفقراء تحفظون البلاد من طغيان الأفكار الخطرة ، والمبادئ الضارة بالمجتمع . انكم بالاحسان تستلون الضغائن من القلوب ، وتذيبون الأحقاد من الصدور . وتستجلبون لأنفسكم سعادة الرضا والثقة والمحبة . والتعاون الصادق ، والطمأنينة على النفس والمال .

واعلموا أن الكثير يضاع بالقليل ، وأن الأرواح تفدى بالأموال ، وأن صنائع المعروف تقى مصارع السوء .

أيها الأغنياء : أيها السعداء ، أيها الرجال والنساء ، هلم الى اغاثة الملهوفين ، هلم الى نجدة المنكوبين ، هلم الى التفريج عن المكروبين ، هلم الى أجابة داعى الانسانية . وداعى الدين ، ودعى الوطن ، وداعى المصلحة الذاتية وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء

محمود شلتوت

قال العباس بن مرداس :

قد اقضت العقول أن شنه ... على الصديق والعدو صدقه

ومن أعث الناس للمجود ... أغاثه الله إذا أخيفا

وإن من شر الطبع العنو ... العطف فى البؤس على العدو